«وثمَّتْ آياتٌ يقال فيها: (أولُ ما نزل)، والمرادُ أوَّلُ ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أوليةً مقيَّدَةً مثل: حديث جابر -رضي الله عنه- في (الصحيحين)[1]. أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنْزِل أولَ؟ قال جابر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]، قال أبو سلمة: أُنْبِئتُ أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، فقال جابر: لا أُخبرك إلا بما قال رسولُ الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاء فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ...» فذكر الحديث وفيه: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وأُنْزِلَ عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾» [المدثر:١-٥].

فهذه الأوَّلِيَّةُ التي ذكرها جابر -رضي الله عنه- باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أوَّلُ ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتَتْ به نبوةُ النبيِّ ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نبئ بـ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأرسل بـ: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]».

الشرح

قد تقدَّم بيانُ أولِ ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، وهنا أوليَّةٌ إضافية، بمعنى: أنه أولُ ما نزل باعتبار شيءٍ معينٍ، ومن ذلك قول الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فإن جابرًا -رضي الله عنه- سُئِل عنها أي:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، (٤٩٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

عن أول ما نزل، فقال: هذه الآية، وهذا يتناقض مع ما سبق من أنَّ أولَ ما نزل هي الخمسُ آيات من سورة اقرأ.

فيقال للجمع: إن هذه أوليةٌ نسبيَّةٌ، وإن شئت فقل: أولية إضافية، يعني: باعتبار شيءٍ معين، فيقال مثلًا في قول جابر -رضي الله عنه- إن هذا أولَ ما نزل، أي: باعتبار ما نزل بعد فترة الوحي؛ لأن أولَ ما نزل خمسُ آيات من أول سورة اقرأ، ثم فَتَر الوحيُ، ثم جاءت خمس الآيات من سورة المدثر.

أو يقال: إنها أولُ ما نزل باعتبار الرسالة، بأن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ثبتت به النبوة، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ثبتت بها الرسالة، وهذا جمع واضح، وهذه تسمى أولية إضافية، أو أولية نسبية، وسيأتي -إن شاء الله- مثل ذلك في آخر ما نزل.

* * *

٣- نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ

«ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسمُ الأوَّلُ: ابتدائيٌّ: وهو ما لم يتقدَّمْ نزولَه سببٌ يقتضيه، وهو غالبُ آيات القرآن، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥] الآيات، فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثيرٌ من المفسرين، وروَّجَها كثيرٌ من الوعَّاظ، فضعيفٌ لا صحة له[1]».

الشرح

نزول القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين: ابتدائي وسببي، فالابتدائي: ما ليس له سببٌ، وهذا أكثر القرآن، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

ثم قال: «وهو غالبُ آيات القرآن الكريم، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٧٥]»، واخترنا التمثيلَ بهذه الآية وإن كان غيرها كثيرًا؛ لأجل الإشارة إلى القصة التي ذُكِرَتْ فيها.

فقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين.

وقوله: ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَّنْ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أي: قال:

---

(١) رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

أعاهدُ اللهَ -عز وجل- أن الله إذا أغنانا من فضله لأتصدقن، ولأكونن من الصالحين، وهذا نذرٌ، وهو نذرُ طاعةٍ معلَّقٍ بشرط، ونذرُ الطاعةِ ينقسم إلى قسمين: مطلق، ومعلق.

فالمطلق: مثل أن يقول: لله عليّ نذر أن أصلي ركعتين.

والمعلق: مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي فللّه عليّ نذر أن أتصدق بكذا، أو مثل نذر هؤلاء ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥].

وأيهما آكد في وجوب الوفاء؟

الجواب: المعلق؛ لأن المعلق على اندفاع نقمة، أو حصول نعمة، فهو نذرٌ يتضمن العهدَ والشُّكْرَ لله -عز وجل-، وقد أعطاك الله -تعالى- ما عاهدته عليه، فوجب عليك أن توفي له بما عاهدته عليه.

وقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: «**اللام**»، و«**القَسَم المقدَّر**»، و«**النون**».

ثم قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٦-٧٨]، وفي هذه الآية التحذير من مثل هذا النذر وإخلافه، وأن الإنسان إذا نذر لله تعالى شيئًا على اندفاع مكروه، أو حصول مطلوب فلم يَفِ به؛ فإنه ربما يعاقب بهذا العقاب العظيم.

وقوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يعني: إلى الموت -والعياذ بالله- ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

يقول: إنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، وأنه جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يريد التوبة، ولكنه لم يحصل له ذلك، والقصة مذكورة في التفسير، ولكنها لا صحةَ لها في ثعلبةَ بْنِ حاطبٍ، وهذه قصةٌ غيرُ صحيحةٍ، وذلك لأن الرجل مهما أذنب من الذنوب إذا تاب ورجع إلى الله فإن الله يقبل منه، فهذه القصة مخالِفَةٌ لما عُلِم من الضرورة، وهو قبولُ توبة الله تعالى من التائبين، ولهذا ينبغي للإنسان إذا سمع مثل هذه القصص التي تخالف القرآن أن يحرِّرَها، ثم يبين ما فيها من البطلان.

***

«القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدَّم نزولَه سببٌ يقتضيه.

والسبب:

أ- إما سؤالٌ يجيب الله عنه، مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]».

الشـرح

وفي القرآن أساليب أخرى مثل هذا الأسلوب ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، ولكننا اخترنا التمثيلَ بهذه الآية لما سنذْكُره -إن شاء الله-.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ السائل هم الصحابة، ويحتمل أنه غيرهم، لكن الظاهر أنهم هم الصحابة وليس المشركين.

وقوله: ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال وهو القمر، يُرى في أول ليلة، وثاني ليلة، وثالث ليلة، لكن الحكم يتعلق برؤيته أول ليلة، ثم بَيَّن الله تعالى الحكمة من ذلك فقال -تعالى-: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾.

وقوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كلُّ الناس من العرب والعجم، منذ خلق اللهُ الأهلةَ إلى أن يشاء الله، هذه هي المواقيت التي خلقها الله -عز وجل- لتكون مواقيت للناس.

وقوله: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ نصَّ على الحج؛ لأن ميقاتَ الحج الأَشْهُرُ، والصلاة ميقاتُها يوميٌّ، زوال الشمس وغروبها، وما أشبه ذلك، لكن الحج أَشْهُرٌ، ولم يذكر شهر رمضان مع أنها مواقيت شهر رمضان؛ لأن الحجَّ يحتاج إلى سفر وعناء؛ ولأن الحجَّ ليس شهرًا واحدًا بل هو أشهر، فلهذا قال: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾، وقد ذكرنا هذا المثال من أجل دفع ما قاله البلاغيون في أسلوب الحكيم، فأسلوب الحكيم هو: أن يُجاب السائِلُ بخلاف ما يتوقَّع، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل عنها، يعني: إنسان يسألك عن شيء فتجيبه بخلاف ما يتوقع، إشارةً إلى أنه ينبغي أن تسأل عن هذا لا عن هذا.

يقول البلاغيون: إن الصحابة -رضي الله عنهم- سألوا النبيَّ -عليه الصلاة والسلام- عن الأهلةِ، وسببِ بُدُوِّ الهلال صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود فينقص؟ فصرف الله الجوابَ عما سُئِلَه إلى بيان فائدة هذه الأهلة، وليس إلى بيان السبب الطبيعي لهذه الأهلة.

فيقال للبلاغيين -عفا الله عنكم-: من أين أتيتم بهذا؟

قالوا: لأجل أن نُمَثِّل لأسلوب الحكيم.

فنقول: لكن هذا ليس له أصلٌ، فالصحابة سألوا عن الحكمة من ذلك، فأُجيبوا ببيانه لماذا تكبر وتصغر، ونجيب بذلك من أجل أن تكون مواقيتَ للناس والحج، ولهذا نجد الإنسان الذي يتابع القمر تمامًا، يمكن أن يحدد لك الليل بمجرد أن يرى القمر؛ لأنه يسير بتيسير الله -عز وجل- بنظامٍ بديع، وسير منظم، فالقمر يستفيد نورَه من الشمس، وكلَّما بَعُد عنها كان أكثر مقابلة لها، وكلما كثرت المقابلة ازداد نورًا، ولهذا يكون في النصف من الشهر في الشرق، والشمس في الغرب، فتكون المقابلة تامة فيمتلئ نورًا، وكلما قرب ضعف نوره، ويكون القمر في أول الشهر يكون ظهر قوسه إلى المغرب، وفي آخر الشهر يكون ظهر قوسه إلى الشرق؛ لأنه في آخر الشهر يكون أقربَ إلى الشمس من جهة المشرق، وفي أول الشهر يكون أقرب إلى الشمس من جهة المغرب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

١- إثباتُ علم الله -عز وجل-، وسِعَةِ سمعه.

٢- أن الصحابةَ -رضوان الله عليهم- لم يتركوا شيئًا يحتاجه الناس إذا لم يبين لهم ابتداءً إلا سألوا عنه، وبذلك كمل الدين.

* * *

«ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير، مثل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ...﴾ الآيتين [التوبة:٦٥-٦٦]، نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]»[1].

الشرح

هذا أحد الأسباب، فالمنافقون لا يألون جهدًا في القدح في الإسلام والمسلمين، لكنهم يختفون لجبنهم، وعدم صراحتهم، وخيانتهم، وخداعهم، يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء...، إلى آخره، فقال الله -عز وجل-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ يعني: نخوض في الحديث، ونلعب في الأفكار، ولسنا نقصد ذلك على وجه الجد، فقوله: «أرغب بطونًا» يعني: أوسع بطونًا، وسعة البطن تقتضي كثرة الأكل، فالمعنى أن هؤلاء ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم.

وقوله: «ولا أكذب ألسنًا» الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع.

وقوله: «ولا أجبن عند اللقاء» الجبن: هو الشح بالنفس، والبخل: هو الشح بالمال، فالمنافقون هم أحق الناس بهذه الأوصاف، فهم الذين لا يريدون إلا الدنيا وشبع البطون، وشهوة الفروج، والرئاسة المذمومة، لكن محمدًا

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٨)، والطبري (١٠/ ١٧٢).

رسول الله ﷺ وأصحابه لا يريدون هذا، وإن أرادوه فإرادة ثانوية، فالأمر عندهم أعظم من هذا، فهم يريدون الآخرة، يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه، ومع هذا وصفوا بها النبي ﷺ الذي يقول لأمته: «**بَحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1] -نسأل الله أن يعيننا على سلوك هذا التنظيم الطبي- أكثر الناس تملأُ بُطونَها كلما أفطر، وكلما تغدى، وكلما تعشى، وإذا قيل له في ذلك، قال: إن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: «**لا أجد له مسلكًا**»[2]، فيحتج في هذه القضية الخاصة، والنظام الذي نَظَّمَهُ الرَّسُولُ يغفل عنه، مع أن النظامَ الذي نظمه الرسولُ ﷺ هو الصحة، فقال: «**مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ**»[3]، وهذا واضحٌ، ولذلك قال شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «إنه يحرم على الإنسان الأكل والشرب إذا خاف أن يتأذى به، أو خاف تخمة يتأذى»، يعني: من ثقلت بطنه امتلاءً يتأذى، أو خاف تخمة يعني: تغير المعدة برائحة كريهة، فإنه يحرم عليه؛ لأن هذا من أسباب المرض والأذى، فيجب على الإنسان أن يرفعه عن نفسه.

وفي هذه الآية دليل على أن المستهزئ بالله وآياته ورسوله كافر، حتى وإن لم يقله على وجه الجد، بل إنَّ كُفر المستهزئِ أشدُّ من كفر القائل على الجد؛ لأن المستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٧٣٥)، والترمذي: كتب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، رقم (٦٥٤٢).

(٣) جزء من حديث: «بحسب ابن آدم لقيمات..» وقد تقدم تخريجه قريبًا.

فإن قال قائل: إذا استهزأ الإنسان بشريعة من شرائع الله، أو بشعيرة من الشعائر، لا بالآيات كلها، بل بالآية المعينة أيكفر؟

فالجواب: إما أن المراد بالآيات هنا الجنس، فتشمل الواحدة، أو يقال: من آمن ببعض وكفر ببعض، فهو كافر بالجميع، ولهذا لا يمكن أن ينقسم الإسلام، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، بل من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بالجميع.

قال -تعالى-: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، فيقال: المستهزئ بآية واحدة، أو بشريعة واحدة، مستهزئٌ بالجميع، كما أن المكذِّبَ لرسولٍ واحدٍ مكذِّبٌ للجميع؛ لقول الله -تعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ومن المعلوم أنه لم يُرْسَلْ أَحَدٌ قبل نوح، ومع ذلك جعل الله تكذيبهم إلى جميع الرسل؛ لأن من كذَّبَ رسولًا فقد كذَّبَ الجميعَ.

فإن قال قائل: الذي يستهزئ بمَنْ يُقَصِّر ثوبَه -مثلًا-، هل يعتبر كافرًا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

إذا كان قصدُه بالاستهزاء به أنه استهزأ به لكونه فعَلَ ذلك، فهذا استهزاء بما فعَلَ من الشريعة فيَكْفُر.

وأما إذا استهزأ به لشخصه، فإنه لا يكفر لكنه على خطر أن يُلْقِيَ الشيطانُ في قلبه كراهة هذا الشخص، لكونه تلبس بهذه الشريعة، ويتبين الفرق: بأنه لو أحدٌ ممن له الاحترام في قلبه قصَّر ثوبَه أو أعفى لحيته لم يستهزئ به.

فالمهم أن هناك فرقًا بين الاستهزاء بالشرع، والاستهزاء بمن تلبَّس بالشرع، الأول: لا تفصيلَ فيه أنه كُفْرٌ، والثاني: فيه التفصيل.

مسألة: من استهزأ بالله ورسوله وآياته، هل تقبل توبته؟

الجواب: نعم، والدليل قوله -تعالى-: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦]، والطائفة التي يعفو عنها هي الطائفة التي تابت، وليس هذا من باب الدخول في المشيئة، يعني: لو قال قائل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ يعني: أن الأمر تحت المشيئة، نقول: بل ذلك بالمنة على الطائفة المعفو عنها بأن تتوب، مثل قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟﴾ [التوبة:١١٨]، أي: يسر لهم التوبة، فهذه مثلها، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾، أي: نُيَسِّرَ لهم أسباب العفو، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، والدليل على أنه ليس المراد أن الأمر تحت المشيئة قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦]، والكفر لا يُغْفَر إلا بتوبة.

مسألة: من استهزأ بالرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته، هل تُقبل توبته أم لا؟

الجواب: من سبَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته، فإنه تُقبل توبتُه إذا تاب، لكنه يُقْتَل، أخذًا بالثأر للرسول ﷺ، لا لأنه لا تقبل

توبته، فإذا قتلناه غسَّلْنَاه، وصلَّيْنا عليه، وفعلنا به كما نفعل بالمسلمين.

* * *

«ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه، مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ...﴾ [المجادلة:١-٤]».

الشـرح

وسبب نزول هذه الآية: أن رجلًا ظَاهَرَ من امرأته، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكانوا في الجاهلية يَرَوْنَ الظهار طلاقًا بائنًا، فلم تصبر المرأة، امرأةٌ تزوَّجها، وكبرت، وجاءت بأولاد، ثم يأتي ويطلقها طلاقًا بائنًا بالظهار، فجاءت تشتكي إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-، تقول: إن زوجها ظاهر منها بعد أن أَتَتْ له بعيال، وكبرت،... إلخ، فأنزل الله هذه الآيةَ في بيان حكمها.

وفي الآيات من الفوائد العقدية والفقهية ما لا يتسع المقامُ لذكرها، لكن فيها إحاطةُ سَمْع الله تعالى بكل شيءٍ، تقول عائشة -رضي الله عنها-: «الحمد الله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، لقد كنت في الحجرة، يعني: في طرف الحجرة، وإن بعض حديثها ليخفى عليَّ، والله -جلَّ وعلا- سَمِعَه من فوق سبع سموات»[1]، وقد قال الله -تعالى-: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣٦٧٥)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [الزخرف:٨١]، بل إن الله -تعالى- يعلم ما توسوس به نفس الإنسان، فيعلم ما تتحدث به النفس، ويعلم السر، ويعلم الجهر، ويسمع السر، ويسمع الجهر.

* * *

«فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة، منها:

١- بيانُ أن القرآن نَزَل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبيَّ ﷺ يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينًا له».

الشـرح

من أهم ما يحصل من معرفة سبب النزول؛ أنها تُبَيِّنُ أن القرآنَ نزل من عند الله، ووجه ذلك: أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- يُسأل عن الشيء فيتوقف، ثم ينزل الوحي، ولو كان القرآن من عند غير الله لكان الرسول يجيب عليها، فلما كان يتوقف حتى تنزل الآيةُ مُبَيِّنَةً حكم هذا السبب، دلَّ ذلك على أن القرآن نزل من عند الله تعالى؛ ولهذا لما سألوه عن أصحاب الكهف قال أخبركم غدًا؛ لأنه ليس لديه علمٌ بهم، فجاء الغد ولم ينزل شيءٌ من القرآن إلى خمسةَ عشرَ يومًا، والنبيُّ ﷺ لم ينزل عليه شيءٌ لأنه صادقٌ، ولا يمكن أن يتقوَّل على اللهِ، حتى نزلت قصتُهم فقصَّها على الناس.

* * *

مثال الأول: قوله -تعالى-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]. **ففي صحيح البخاري[1] عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمتُ أنه يُوحَى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال:** ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]».

الشرح

اليهود سألوا النبي ﷺ عن الرُّوح، وكذلك ورد أن قريشًا سألوه عن الرُّوح، والمراد بالرُّوح هنا: النفس التي في الإنسان؛ لأنها إن كانت في البدن صار حيًا متكلمًا، سميعًا، بصيرًا، ماشيًا، قاعدًا، وإن خرجت من البدن صار جثةً هامدةً، وحقيقة أنها تبهر العقول، فقال الله -عز وجل-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾، يعني: مِنْ أَمْرِ الله التي لا يمكن أن نَطَّلع عليها إلا عن طريق الوحي، ثم قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وهذا كالتبكيت لهم، كأنه قال: ما بقي عليكم من العلم إلا أن تعرفوا الرُّوح؟! وصدق الله -عز وجل-؛ فعلمُنا قليل محدود، لا بالشرع، ولا بالواقع، ولا بما في السموات، ولا بما في الأرض.

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وبهذه الآية يمكن أن نجيب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، رقم (١٢٥)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، رقم (٢٧٩٤).

هؤلاء الذين يسألون عن كيفية صفات الله، أو عن كيفية ما يقع من أمور الغيب.

* * *

«ومثال الثاني: قوله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وفي صحيح البخاري(١) أن زيدَ بن أرقم -رضي الله عنه- سَمِع عبد الله بن أُبيٍّ -رأسَ المنافقين- يقول ذلك، يريد أنه الأعزُّ، ورسولُ الله ﷺ وأصحابُه الأذَلُّ، فأخبر زيدٌ عمَّه بذلك، فأخبر به النبيَّ ﷺ، فدعا النبيُّ ﷺ زيدًا فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله ﷺ، فأنزل اللهُ تصديقَ زيدٍ في هذه الآية؛ فاستبان الأمرُ لرسول الله ﷺ».

الشـرح

هذه الآية في سورة (المنافقون)، يقولون: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وهنا القائل: عبد الله بن أبيٍّ، لكنه زعيمهم فَنُسِبَ القولُ إليهم جميعًا، فقوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يريدون بالأعزِّ أنفسَهم، وبالأذلِّ رسولَ الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وأصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٩٠٠)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٧٧٢).

المنافقون أغنياء، المنافقون أعزاء بأنفسهم، وهم أذلةٌ، فماذا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]، يعني وإذا انفضوا فأنفقوا عليهم، ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للتعليل وليست للغاية، بخلاف قوله -تعالى-: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، فهنا ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، فانظر الفرق.

قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ حتى يتركوه، فأجابهم الله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧]، أي: أن الرزق ليس بأيديهم بل بيد الله -عز وجل-، وما رَزَقهم اللهُ من مال إلا فتنةً لهم.

فأخبر زيدٌ عمَّه بذلك، فأخبر به النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فدعا النبيُّ ﷺ زيدًا، فأخبره بما سمع... إلى آخر ما حصل.

وهذا الحديث ينبغي أن يُتَّخَذ أصلًا للتثبُّتِ فيما يُنقل، وإلا فمِنَ المعلوم أن عمَّ زيدِ بْنِ أرقمَ من الصحابة، وهم عدول، لكن أراد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن يتثبَّت من الأمر، حتى يأتي الأمرَ على بصيرة، وهكذا ينبغي للإنسان فيما ينقل إليه أن يتثبَّت منه، ثم أرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، وهكذا شأن المنافقين يحلفون على الكذب وهم يعلمون؛ لأن شعارهم الكذب والمخادعة والنفاق، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية، فاستبان الأمرُ لرسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وتأمَّلِ الآيةَ، قال الله -تعالى- في الرد عليهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] ولم يقل: (رسولُ الله هو الأعز)، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ وتقديم الخبرِ يَدُلُّ على الحصر، ولو قال: (والله هو الأعز)، لأوهم ذلك أن يكون للمنافقين عزةٌ، وليس الأمر كذلك.

والمنافقون أنزل الله فيهم سورةً كاملةً، وهي سورة (المنافقون)، وأنزل فيهم آيات عدة في سورة براءة، ولهذا كانت براءة من أشد السور على المنافقين؛ لأنها فضحتهم، كما أنزل الله تعالى في واحد من الكافرين سورة كاملة وهو أبو لهب؛ لأنه عَمُّ الرسول ﷺ، فكان يجب عليه أن يكون أول الناس إيمانًا به، ودفاعًا عنه، لا أن يكون أشدَّ الناس عداوةً له، وكفرًا به، والعياذ بالله.

***

«٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]».

الشرح

أي أنهم قالوا: لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً، كما نزلت في الكتب السابقة، التوراة نزلت جملة واحدة، وكذلك الإنجيل، ويريدون بهذا التشكيك في كون الوحي من عند الله -عز وجل-، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يقِفَ على قول: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ لأن ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ جملة مستأنفة، فهي تعليلٌ لجملةٍ محذوفةٍ، والتقديرُ: (أنزلناه كذلك)، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنه لو نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة لم يحصل التثبيت، كما يحصل فيما إذا كان يأتيه إرسالًا، وهذا أمر مشاهد، لو أن إنسانًا وعظك بموعظة بليغة عظيمة جدًّا، وتأثرت منها، ولكن لم يعظك بعد ذلك، لم يكن كما لو وعظك موعظةً خفيفة، ثم أعادها عليك مرة ثانية، وثالثة، فإن هذا التكرار يكون كسقي الشجرة بالماء يكرر عليها، ولهذا بين الله أن من الحكمة أن يُثَبِّتَ به قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، وكذلك قوله -تعالى-: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤] يعني: اقرأه على مهل، وأما زعمُ أهل التجويد أن المراد به جَوِّده، أي: اقرأه بصيغة التجويد، فليس كذلك، بل المراد بالترتيل أن تقرأه على مهل.

مسألة: هل تجويد القرآن واجب؟

الجواب: التجويد لا يجب، فإنه يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن غير مجودٍ ما دام أنه ينطق بحروفه وحركاته، وأما تحسين الصوت فمشروع، فإن الرسول ﷺ أثنى على أبي موسى الأشعريِّ، حيث قال: «**لَقَدْ أُوتِيْتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[1]، فقال: لو علمتُ يا رسولَ الله أنك تستمع إليَّ لحبَّرتُه لك تحبيرًا[2]، وأما أن يَجْعَلَ بوقًا في فمه وهو يقرأ، فهذا خلاف السنة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم (٥٠٤٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٣).

(٢) زيادة عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٥، رقم ٤١٧٨)، وأخرجها النسائي في الكبرى (٣/ ١٢، رقم ٤٤٨٤).

«وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دِفاعٌ عن فِرَاش النبيِّ ﷺ، وتطهيرٌ له عمّا دنَّسَه به الأفَّاكُون».

الشـرح

آياتُ الإفك[1] لا شك أن لها سببًا في نزولها، وذلك فيما جرى على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، حين تخلَّفت عن الجيش في إحدى الغزوات، ووجدها صفوانُ بْنُ معطِّلٍ -رضي الله عنه- نائمةً، ثم أناخ بعيرَه، ولم يتكلم لها بأي كلمةٍ؛ احترامًا لفراش النبي ﷺ، لكنه وضع قدمه على ذراع البعير، ثم ركبت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، ثم ذهب بها يقودها ولم يجعلها بين يديه، بل كانت من خلفه، فلما وصل إلى القوم فرح المنافقون بهذا، ورأوا ذلك فرصة في الطعن برسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بتدنيس فراشه، وحاشاه من ذلك، ثم حصل في ذلك ما حصل، والقصة معروفة في كتب التاريخ والسير، وفي كتب الصحاح والمسانيد، والحكمة من ذلك هو الدفاع عن فراش النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ونزلت تطهيرًا له عما دَنَّسه به الأفَّاكون.

ولا يخفى علينا جميعًا لو أن رجلًا قيل له في امرأته أنها ذات بغاء فإن موقفه سيكون حرجًا صعبًا، ولهذا فتر الوحي، فأصاب النبيَّ ﷺ من الهم والغم ما لا يشعر به أحد، زوجته وبنت صِدِّيقه وأحبُّ النساء إليه تُرمى بهذا الفعل الشنيع والعياذ بالله، فكان في قلق وكان يدخل عليها وهي مريضة،

(١) هي أول سورة النور، وقصة الإفك أخرجها البخاري: كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم (٤١٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

لأنها أول ما رجعت إلى المدينة أصابتها الحمى، ثم لما سمعت بالقضية ازدادت وصارت تبكي ليلًا ونهارًا، لا يرقأ لها دمعٌ، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- عادته إذا دخل عليها وهي مريضة أن يسأل عنها ويحتفي بها، وفي تلك الأيام كان إذا دخل قال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» باسم الإشارة للبعيد، ولا يتحدث إليها ولا يستأنس بها؛ لأن الأمر عظيم -نسأل الله أن يحمينا وإياكم- فالمسألة مصيبة لا تتصور.

ولهذا قال الله -عز وجل-: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور:١٥-١٦]، ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يعني أنه ممتنعٌ أشد الامتناع، ما يكون لنا أن نتكلم ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك أن تكون زوجة نبيك بهذا المثابة، ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال -عز وجل-: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني برسول الله ﷺ وأم المؤمنين أو بأنفسهم، أي لظنوا بالرسول وبأم المؤمنين كما يظنون بأنفسهم وهم يظنون بأنفسهم البراءة من هذا، فالمسألة عظيمة.

فلمَّا نزل الوحي -سبحان الله- نزل وهو في بيتِ عائشةَ عشرُ آيات محكمات عظيمات، يتقرب المسلمون بهنَّ إلى الله -عز وجل-، ولهم بكل حرفٍ منهنَّ حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، انظر إلى الفَرَج من الله -عز وجل- نزلت هذه الآيات العظيمة؛ ولهذا أجمع المسلمون على أن مَنْ قذف عائشةَ -رضي الله عنها- بما برَّأها اللهُ منه فإنه كافرٌ مرتَدٌّ، يُقتل على كل حال،

بل قالوا: لو قذفها بغير ذلك أو قذف واحدةً من أمهات المؤمنين فهو كافر مرتد لا تُقْبَل منه توبةٌ، يُقتل بكلِّ حال، ولا كرامة له، وهو أذلُّ عندنا من الجِعْلَان[1]، فآياتُ الإفك نزلت بسبب خوْضِ هؤلاء المنافقين ومن اغتَرَّ بهم في هذا الأمر العظيم.

إذن: فيه بيانُ عناية الله -عز وجل- برسولِه ﷺ، ونِعْمَ المُرْسِل ونِعْم الرسول، وعناية الله تعالى بفراش الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يُدَنَّس، والله لو دُنِّس فراشُ واحدٍ من الناس لكان عظيمًا، فكيف بفراش النبي ﷺ، ولهذا أنزل الله الآياتِ في الدفاع عن فِرَاش الرسول ﷺ، وتطهيرًا له -عليه الصلاة والسلام- عما دنَّسه به هؤلاء الأفَّاكون، وهو تطهيرٌ لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

تطهيرٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يكون فِراشه بغيًّا؛ فحصل بذلك طمأنينة الرسول ﷺ، وبيانُ عنايةِ الله به، وخِذْلانِ هؤلاء الخبثاء الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ هو عبد الله بْنُ أُبَيٍّ، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]، في الآخرة، أما في الدنيا فلم يحدَّه الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- أي: لم يقم عليه الحدَّ، مع أنه أقام الحدَّ على حسان ابن ثابتٍ، ومسطحِ بن أثاثةَ، وحمنةَ بنتِ جحش[2]، لكنَّه لم يُقِمِ الحدَّ على عبد الله

---

(١) الجِعْلانُ: جمع جُعَل، وهو دابة سوداء من دواب الأرض، انظر لسان العرب، مادة (جعل).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٣٥٤٦)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في حد القذف، رقم (٤٤٧٤)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، رقم (٣١٨١)، وقال: «حسن غريب،

ابن أُبَيٍّ، مع أنه هو الذي تولى كِبَره لأسباب:

أولًا: اكتفاءً بقوله -تعالى-: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]، ولم يقل: اجلدوه.

ثانيًا: الحد تطهيرٌ، وعبدُ الله بْنُ أُبَيٍّ خبيثٌ، ليس أهلًا للتطهير.

ثالثًا: أن النبي ﷺ يحب التأليفَ، فلربما يحصل من قومه ما لا تُحْمَدُ عُقْبَاه لو أُقِيم عليه الحدَّ، ولهذا تركه الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

رابعًا: أن الخبيثَ عبد الله بن أُبَيٍّ، ماكرٌ، مخادع، لم يصرِّحْ بهذا الأمر، لكنه يجلس في المجالس يقول: ما سمعتم شيئًا؟ فهو يشير بالحديث، ولا يصرح به، ومَنْ كان كذلك فإنه لا يُحَدُّ.

فالمهم أن النبي ﷺ ترك إقامة الحدِّ على هذا الخبيث لأسباب، والمقصودُ من هذه القصةِ هو بيانُ عناية الله -تبارك وتعالى- برسوله ﷺ والدفاع عنه، وبيان عناية الله -سبحانه وتعالى- بعباده في تفريج كُرُباتِهم وإزالة غمومهم، ولله الحمد والشكر.

ولكن هذا لم ينفع المنافقين، ولم ينفع الرافضةَ الذين ما زالوا إلى الآن يطعنون في عائشةَ أمِّ المؤمنين -رضي الله عنها-، وإن كانوا لا يتفوَّهون بالإفك، ولكنهم يطعنون بها في تصرفاتها التي يزعمون أنها طعنٌ فيها، مع أنه إنما صدر عن اجتهادٍ منها، والمجتهدُ إن أصابَ فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ.

= لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق»، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٥، رقم ٧٣٥١)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب حد القذف، رقم (٢٥٦٧).